

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة ولي

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [1].

{الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [2].

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [3]

الولاء والولاية (بفتح الواو) والولاية (بكسر الواو) والوالي والمولى والألفاظ المماثلة الأخرى مشتقة كلها من مادة والي، التي هي من الألفاظ المستعملة كثيراً في القرآن على اختلاف اشتقاقاتها. يقولون إنها ترد اسماً في 124 موضعاً، وترد فعلاً في 112 موضعاً من القرآن الكريم.

والمعنى الأصلي للكلمة، كما ورد في (المفردات) للراغب الإصفهاني هو أن يكون الشيء إلى جانب شيء آخر بحيث لا يكون بينهما فاصل. أي إذا اتصل شيان معاً اتصالاً لا فاصل بينهما نقول إن أحدهما (يلي) الآخر. وإذا أردنا أن نصف جلسة أشخاص في مجلس، فنقول: زيد يجلس في صدر المجلس ويليهِ عمرو، ويلي عمراً بكر، وهكذا. أي إن زيداً وعمراً وبكراً يجلسون متلاصقين لا يفصل بعضهم عن بعض فاصل.

والكلمة تستعمل أيضاً في حالات القرب عموماً، سواء أكان قرباً مكانياً أم قرباً معنوياً، ومن هنا تتداعى معاني اللفظة لتشمل المحبة، والعنوان، والتصدي للأمر، والتسلط، وكثيراً من المعاني الأخرى المتقاربة الأصل، والتي يضمها جميعاً نوع من الاتصال والتقارب، حتى قيل إن اللفظة (مولى) سبعة وعشرين معنى. وبديهي أن هذه اللفظة لم توضع لمعاني متباينة ومنفصلة، فمعنى الأصل واحد.

إلا أن هناك اختلافات في المعنى تنشأ من اختلاف مواضع الاستعمال، وهذه الاختلافات تدرك بالقرآن.

واللفظة تستعمل أيضاً في المواضع المادية الجسمانية، كما تستعمل في المواضع المعنوية المجردة، ولكن الذي لا شك فيه هو أنها أول ما استعملت في المواضع المادية، ثم امتد استعمالها للمعنويات المجردة عن طريق تشبيه المعقول بالمحس، أو عن طريق تجريد معنى المحس، وذلك لأن اهتمام الإنسان بالمادي المحس - سواء من وجهة نظره كفر، أم من وجهة نظر المجتمع البشري في طول تاريخه - يسبق اهتمامه بالمعقول المعنوي. أما البشر، بعد إدراك المعاني والمفاهيم الحسية، ينتقل تدريجياً إلى درك المعاني والمفاهيم المعنوية. وهو بالطبع قد استعمل الألفاظ نفسها، التي كان يستعملها للمسائل المادية، بمثابة أن لبعض العلوم مصطلحاتها الخاصة، أو أنها تستخدم ألفاظاً دارجة وتحملها معاني ومفاهيم خاصة تختلف عن معانيها ومفاهيمها المألوفة.

يقول الراغب بشأن كلمة (ولاية) ومواضع استعمالها: إِنَّ (الولاية) بكسر الواو تعني النصر، و(الولاية) بفتح الواو تعني المتصدي، والمهيمن على عمل ما، ويقال إِنَّ المعنيين سواء. والحقيقة هي أن المعنى هو التصدي والهيمنة.

وفيما يتعلق بكلمتي (الولي) و(المولى) يقول الراغب: هاتان الكلمتان لهما أيضاً المعنى نفسه، وكل ما في الأمر هو أن أحدهما اسم فاعل والأخرى اسم مفعول. ثم يأخذ بتبيان مواضع استعمالهما.

[1] النساء، الآية: 122.

[2] التوبة، الآية: 71.

نوعا الولاء

في القرآن يكثر ورود ألفاظ (الولاء والموالة) و(التوالي) باعتبارها عناوين لمسائل يتناولها هذا الكتاب السماوي العظيم. إنَّ ما يمكن استنتاجه على وجه الإجمال من التمعن في هذا الكتاب المقدس هو أن هناك نوعين من الولاء في الإسلام: الولاء السلبي، والولاء الإيجابي. أي أن المسلمين مأمورون بأن يرفضوا نوعاً من الولاء، وأن يتقبلوا نوعاً آخر منه وأن يتمسكوا به.

إنَّ الولاء الإسلامي الإيجابي على نوعين أيضاً: الولاء العام والولاء الخاص. وللولاء الخاص أقسام؛ ولأه المحبة، وولاء الإمامة وولاء الزعامة، وولاء التصرف، أو الولاء التكويني. وسوف نبحت كلاً على وجه الإجمال

1 - الولاء السلبي

حذر القرآن الكريم المسلمين من منح ولانهم ومحبتهم لغير المسلمين، ليس لأن حب الآخرين أمر منهي عنه، ولا لأن القرآن يطلب من المسلم أن يبغض غير المسلم في كل الأحوال أو يعارض الإحسان إليه، فالقرآن صريح في هذا بقوله:

{ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [1].

إنَّ الإسلام لا يقول إن أعمال الخير والمحبة التي تعلمونها يجب أن تختص بالمسلمين دون غيرهم، وإن خيركم يجب ألا يصل إلى غير المسلمين. كيف يصح هذا في دين يقول قرآنه صراحة إنه (رحمة للعالمين)؟

إلا أن هناك قضية مهمة وهي أن على المسلمين ألا يغفلوا عن أعدائهم الذين ينظرون إليهم نظرة مغايرة. إنَّ عليهم أن ينتبهوا إلى العدو الذي يلبس لبوس الصديق. فلا يحسبونه صديقاً ويضمنون إليه.

على المسلم أن يتذكر دائماً أنه عضو في مجتمع إسلامي، وأنه جزء من هذا المجموع، وإن شروطاً ينبغي أن تتوفر في العضو الذي ينتمي إلى الجسد، شاء العضو ذلك أم أبى. أما غير المسلم فهو عضو في جسد آخر. إن علاقات عضو الجسد الإسلامي مع أعضاء الجسد غير الإسلامي ينبغي أن تكون بصورة لا تخل، في الأقل، بعضويته في الجسد الإسلامي، فلا يصيب الجسد الإسلامي ضرر من جراء ذلك. إنَّ علاقات المسلم بغير المسلم لا يمكن أن تكون مساوية لعلاقته بالمسلم، ولا أن تكون أقرب من ذلك.

إنَّ روابط المحبة الحميمة فيما بين المسلمين ينبغي أن تكون بما تستوجبها عضوية العضو في الجسد ككل. الولاء السلبي في الإسلام يعني أن المسلم لا ينسى وهو يواجه غير المسلم أنه يواجه عضواً في جسد غريب. وإنَّ القول بأن عليه أن لا يقبل، ولأه غير المسلم يعني أن علاقات المسلم بغير المسلم ينبغي ألا تكون بمستوى علاقاته مع المسلم، بحيث يصبح المسلم عضواً في جسد غير مسلم، أو أن عضويته في الجسد الإسلامي لا تؤخذ بنظر الاعتبار.

إذن لا يتنافى أن يحسن المسلم إلى غير المسلم، وفي الوقت نفسه لا يحسبه عضواً في الجسد الذي يكون هو عضواً فيه ويعامله كما يعامل الغريب.

كذلك لا يوجد تناقض بين الولاء السلبي ومبدأ حب الإنسان والعطف عليه. إنَّ حب الإنسان يعني، إن على الإنسان أن يعني بسعادة بني البشر الحقيقية وسعادتهم.

ومن هنا يتمنى كل مسلم أن يصبح جميع الناس الآخرين مسلمين، وليهتدوا إلى الصراط المستقيم. أما إذا لم يحصل لهم مثل هذا التوفيق، فلا يجوز التضحية بمن وفق في سبيل من لم يوفق، أو أن تتداخل الحدود وتزول الفواصل بين الأفعال والإنفعالات.

فلنفرض أن جماعة من الناس مصابة بمرض معين، فالإنسانية توجب علينا أن ننقذهم مما هم فيه، وأن نوالي الإحسان إليهم ماداموا في تلك الحالة. ولكن الإنسانية لا توجب علينا ألا نقيم أي فاصل بينهم - وهم المصابون بمرض معد - وبين السالمين من الناس. لذلك فالإسلام يجيز من جهة الإحسان إلى غير المسلم، ولا يجيز من جهة أخرى أن يتقبل المسلم الولاء لغير المسلم.

إنّ الإسلام الإنسانية، حتى إنه يحب المشرك، لا لكونه مشركاً، بل لكونه مخلوقاً من مخلوقات الله. إنّ المسلم ليحزن إذ يرى المشرك يسير على طريق الضلالة والهلاك، مبتعداً عن طريق السعادة والخلص. ولولا حبه الإنساني لما عناه أن يبقى المشرك في تعاسته وعماه.

إنّ في الإسلام حباً وبغضاً. وهما حب وبغض عقليان ومنطقيان، وليسا ناشئين عن الأحاسيس والإنفعالات لا يضبطهما ضابط ولا تنتظمهما قاعدة. إنّ الحب والبغض الناشئين عن الإنفعالات لا منطق لهما، بل يكونان من الإنفعالات العمي والصم التي تتسلط على دخيلة الإنسان وتجره إلى حيث تشاء. أما الحب والبغض العقليان فإنهما ينشآن من إدراك الحقيقة، والواقع إنهما ينشآن من الإهتمام بمصير الإنسان الآخر الذي نحبه.

إليك المثل التالي:

حب الأبوين لطفلهما ينقسم إلى نوعين: نوع عقلي ومنطقي، ونوع انفعالي. إنّ الحب العقلي يوجب أحياناً على الوالدين أن يسببا الألم لطفلهما بكل جد وبوعي، كأن يأخذانه إلى الطبيب لإجراء عملية جراحية. إنّ الأبوين قد يذرفان الدموع على طفلتهما وهو في تلك الحالة وتنقطع نفساهما حشرات عليه، ولكنهما يطلبان من الطبيب أن يستعجل العملية وأن يقطع من جسمه ما يجب قطعه على الرغم مما في ذلك من ألم أو فقدان عضو. فتلك الدموع ناشئة من الحب الإنفعالي، والإلحاح على الطبيب ناشئ من الحب العقلي.

فإذا عنيا بحبهما العاطفي وقدماه على حبهما العقلي ورفضاً أن ينقص من ابنهما عضو من أعضائه، وإن يكن فاسداً، فإنهما في الحقيقة قد قضيا على ابنهما بالموت.

ولكنهما بسبب حبهما المنطقي وبحكم العقل واهتمامهما بمصير ابنهما، داسا على عواطفهما ورضيا بعذاب ابنهما وألمه.

كل إنسان عاقل لا يتوانى عن تسليم نفسه إلى مبضع الجراح ليقطع له أصبعاً يؤلمه ولا فائدة من بقائه. إنه بالطبع لا يحب أن يعاني ألم القطع، كما أنه يتألم نفسياً من ذهاب أحد أصابعه، ولكنه منطقياً يتحمل هذا الألم ويستسلم عقلياً لفقده أحد أعضائه. فالمنطق والعقل هما اللذان يدفعان به لمراجعة الطبيب، وإلا فإن حكم العواطف حكم يختلف عن ذلك.

إنّ الإسلام إذا رأى مجتمعاً فاسداً يحكمه الكفر والجهل، يأمر من جهة بمجاهدته واقتلاع جذور الفساد منه: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [2] ويأمر من جهة أخرى بالحدز واجتناب الإنفتاح عليهم لكي يبقى المجتمع سالماً. ولا يتناقض هذا أدنى تناقض مع الإنسانية وحب الإنسان.

إنّ اللصوصية من طبيعة الإنسان، ومن طبيعته أيضاً الضبط والالتزام، إذ كثيراً ما يحدث أن يثبت الإنسان في لوح فكره بوعي أفكار الآخرين وآرائهم. يقول القرآن:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ } [3].

إلى أن يقول: { ... إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ } [4].

فالقرآن يرى أن سبب طلب الحذر منهم وتجنبهم هو أنهم يحبون أن يروا الآخرين، وقد دانوا بدينهم ومالوا إليهم. ولكن ترى ما الخطر في أن تكون هذه هي رغبتهم؟

هنا يشير القرآن إلى أن منشأ أصل الخطر ليس مجرد الرغبة، بل هم يسعون جاهدين لبلوغ ذلك الهدف.

كل هذا يستوجب أن تتسم روابط المسلم مع غير المسلم بالحذر، وعلى المسلم ألا يغفل عن الخطر، وألا ينسى أنه عضو في مجتمع موحد، وأن غير المسلم عضو في مجتمع آخر. غير أن ذلك لا يستوجب أيضاً أن يقطع المسلم كل صلة له بغير المسلم، وألا تكون له معه علاقات اجتماعية واقتصادية، وأحياناً سياسية أيضاً، إذا كانت تلك العلاقات منسجمة طبعاً مع مصالح المجتمع الإسلامي.

2- الولاء الايجابي العام

يريد الإسلام من المسلمين أن يعيشوا في وحدة مستقلة، وأن يكون لهم نظام مترابط ومجتمع متماسك، كل فرد فيه يرى نفسه عضواً في جسد واحد هو المجتمع الإسلامي، لكي يصبح المجتمع الإسلامي قوياً. لقد جاء في القرآن أن المجتمع المسلم ينبغي أن يكون أفضل من المجتمعات الأخرى:

{ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [5].

ويقول القرآن في مكان آخر:

{ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [6].

إن الإيمان أساس المحبة والوداد والولاء بين المؤمنين:

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [7].

فالمؤمنون قريب بعضهم من بعض، وهذا القرب يحملهم على أن يحب بعضهم بعضاً وينصره ويحامي عنه ويهتم بمصيره الذي هو في الحقيقة مصير مجتمعه الموحد الواحد، ولذلك فهو يأمره بالمعروف وينهاه عن ارتكاب الأعمال القبيحة.

إن هذين العاملين - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ناشنان من الود الإيماني، وبهذا نجد هذه الجملة ترد مباشرة بعد ذكر ولاء المؤمنين بعض لبعض.

إن الاهتمام بمصير الأشخاص ينبع من اهتمامهم بمصيرهم، فالأب الذي يحب أبنائه لاشك أنه يعاني بمصائرهم وسلوكهم، ولكنه قد لا يحس بالإحساس نفسه إزاء أولاد الآخرين، لأنه لا تربطه بهم رابطة بحيث أن أعمالهم الحسنة تثير فيه إحساساً إيجابياً، وتثير فيه أعمالهم الشائنة إحساساً سلبياً.

فالأمر بالمعروف يأتي من ذلك الإحساس الإيجابي، والنهي عن المنكر يأتي من ذلك الإحساس السلبي. فإذا لم يكن ثمة حب فلا تكون تلك الأحاسيس في قلب الإنسان.

إذا لم يكن المرء محباً للناس يكون لا أبالياً إزاء أفعالهم، ولكنه إذا كان يحبهم فإنه لا يستطيع أن يقف ساكناً ولا أبالياً نحو ما يفعلون. ولهذا فإن الآية المذكورة تربط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالولاء ربطاً خاصاً.

وبعد ذلك يشير القرآن إلى نتائج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر اثنتين منها: {يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [8].

والصلاة نموذج للعلاقة بين المخلوق والخالق. والزكاة نموذج لحسن علاقة المسلمين بعض ببعض. فهم بسبب التعاطف والتراحم الإسلاميين يتعاونون فيما بينهم، ويحمي بعضهم بعضاً.

{ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [9].

سوف نبين أموراً أخرى بخصوص هذه الآية والآيات الأخرى التي تتناول الولاء الإيجابي، وكيف أنه لا يقتصر على اعتبار المحبة والولاء القلبي فحسب، بل يؤكد ضرباً من المسؤولية والتزام حسن الروابط بين المسلمين.

يقول رسول الله (ص) في حديثه المعروف:

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى).

ويصف القرآن رسول الله (ص) وأتباعه فيقول:

{ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } . في هذه الآية إشارة إلى الولاء السلبي والولاء الإيجابي العام. ولقد سبق أن قلنا إن الآيات القرآنية تنبهنا إلى أن أعداء الإسلام في كل زمان يسعون إلى أن يبدلوا ولاءنا الإيجابي بولاء سلبي، والولاء السلبي بولاء إيجابي، أي أنهم يسعون إلى جعل العلائق بين المسلمين وغير المسلمين علاقات صميمية، وجعلها بين المسلمين أنفسهم - بأعداء مختلفة كالتفرقة الطائفية - علاقة عدائية.

إننا نلاحظ في عصرنا هذا جهوداً، كثيرة يبذلها الأجانب في هذا السبيل، بحيث أنهم خصصوا لذلك المبالغ الطائلة، وإنه لما يوسف له أن نلاحظ أنهم نجحوا في إيجاد عناصر بين المسلمين لا عمل لهم سوى تغيير الولاء السلبي الإسلامي إلى ولاء إيجابي والعكس بالعكس. وهذه أشد ضربة يمكن أن توجه إلى الإسلام. وإذا كانت هناك مصيبة من مصائب الإسلام ومأساة من مآسيهم تستدر الدم بدل الدموع فهي هذه، يقول علي (ع):

(فيا عجباً والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم).

نسأل الله أن يقينا شر أمثال هؤلاء ويصوننا من مكارهم:

(اللهم إنا نشكو إليك فقد نبينا، صلواتك عليه وآله، وغيبة ولينا، وكثرة عدونا، وشدة الفتن بنا، وتظاهر الزمان علينا، فصل على محمد وآله، وأعنا على ذلك بفتح منك تعجله، وبنصر تعزه، وسلطان حق تظهره، ورحمة منك تجلّلناها، وعافية منك تلبسناها).

[1] الممتحنة، الآية: 8.

[2] سورة البقرة، الآية: 193.

[3] الممتحنة، الآيات: 1 ، 2 .

[4] الممتحنة، الآيات: 1 ، 2 .

[5] آل عمران، الآية: 139.

[6] الأنفال، الآية: 46.

[7] التوبة، الآية: 71.

[8] المائدة، الآية: 55.

[9] التوبة، الآية: 77.

الولاء الإيجابي الخاص

الولاء الإيجابي الخاص هو الولاء لأهل البيت عليهم السلام. إن الولاء الذي دعا النبي (ص) المسلمين إليه بالنسبة لعترته الطاهرة غني عن الذكر والتوكيد. أقصد حتى أن علماء أهل السنة يؤيدون ذلك. إِنَّ آيَةَ ذَوِي الْقُرْبَى {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} [1] تشير إلى الولاء الخاص. كما أن ما جاء في حديث غدير خم المعروف: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) أيضاً يشير إلى نوع من الولاء سنشرحه فيما بعد.. والآية { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } [2]. قد نزلت، باتفاق الفريقين، بحق علي (ع). فالطبري يذكر روايات عديدة بهذا الخصوص [3]. بينما يقول الزمخشري، وهو من أكابر علماء أهل السنة: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ نَزَلَتْ بِحَقِّ عَلِيٍّ. والسر في نزولها بصيغة الجمع مع أنها عن فرد واحد هو ترغيب الناس على مثله، وإن على المؤمنين أن يكونوا على مثل تلك السيرة والسجية، وأن يحرصوا على الإحسان ومد يد المعونة للفقراء بحيث أن الصلاة نفسها لا تحول دون ذلك. [4]

أي أنهم حتى إذا كانوا أثناء الصلاة وحصلت مناسبة لأداء الزكاة، فلا تكون الصلاة مانعة من ذلك، بل تؤدي خلالها.

والفخر الرازي، وهو أيضاً من كبار علماء أهل السنة، يقول: هذه الآية نزلت بشأن علي. وقد اتفق العلماء أن أحداً لم يؤد الزكاة وهو راعٍ إلا علي. [5]

إلا أن هناك أقوالاً حول معنى (ولي) الذي سنبحثه في كلام قادم.

علي بن حماد العدوي البصري البغدادي، المعروف بابن حماد، من كبار شعراء الإمامية في القرن الرابع الهجري، يشير إلى ذلك بقصيدة عصماء، منها:

قرن الإله ولاءه بولائه

ممن تزكى وهو حان يركع

سماه رب العرش نفس محمد

يوم البهال وذاك ما لا يدفع [6]

إِنَّ الْإِسْلَامَ، كما قلنا، يوصي بنوع من الولاء الإيجابي العام، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة: {الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [7].

إلا أن الآية الكريمة: {إنما وليكم الله...} تشير إلى الموضوع بحيث لا يكون هناك أي احتمال بأنها تقصد الولاء العام كالأية السابقة، لأن القرآن هنا ليس بصدد بيان قانون كلي، ولا يريد أن يبين وجوب أداء الزكاة في حال الركوع أو استحبابه، ولا يقصد إلى تشريع مندوبة أو فريضة إسلامية، بل هو إشارة إلى عمل قام به فعلاً شخص في الخارج. ويريد القرآن أن يحصل من ذلك العمل على وسيلة لتعريف ذلك الشخص، وذلك كناية عن إثبات حكم تلك الولاية الخاصة.

إِنَّ استخدام الجمع لبيان حادث فردي له نظائر مماثلة في القرآن. من ذلك مثلاً قوله:

{ يَقُولُونَ لَنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ } [8].

هنا يشير القرآن أيضاً إلى حادثة واقعة، ويستعمل تعبير (يقولون) بصيغة الجمع، مع أن القائل هو عبد الله بن أبي وحده.

ثم إن هذه الصيغة مستعملة عندنا في الوقت الحاضر أيضاً، فنحن كثيراً ما نستعمل صيغة الجمع في خطابنا للمفرد.

لم يكن أداء الزكاة في حال الركوع من الأمور المألوفة عند المسلمين حتى يمكن القول بأن القرآن قد مدح الجميع، وأنه أثبت (الولاية) للجميع، مهما يكن معناها.

إن هذا بذاته شاهد حي على أن موضوع الآية شخصي وخاص، أي أنه كان هناك من لم يغفل في حال عبادته وأثناء ركوعه عن عبادة الله، فأدى الزكاة، ولذلك يقول القرآن: إن هذا مثل الله ورسوله، وليكم. وعليه، فالكلام يدور على شخص معين هو ولي المؤمنين، مثلما أن الله ورسوله وليا المسلمين، وأن على المسلمين قبول (ولايته).

أما عن معنى هذه الولاية والمقصود منها، وهل هو مجرد الحب والود اللذين ينبغي أن يحملها الناس له، أم أنه شيء آخر أرفع من ذلك، فإننا سوف نبجته قريباً: إنما نحن الآن بصدد إثبات أن مفاد هذه الآية هو الولاء الخاص، لا الولاء العام، كما يراه بعض علماء أهل السنة.

أنواع الولاء الإيجابي الخاص

لقد لاحظنا حتى الآن على العموم أن قضية الولاء لعلي(ع) ولسائر أهل البيت أمر لا شك فيه. كل ما في الأمر هو البحث في المراد بالولاء في هذه الآية والآيات الأخرى، وفي الأحاديث الشريفة التي تدعو إليه. فلكي يتضح المقصود لابد لنا من معرفة مواضع استعمال لفظتي (الولاء) و(الولاية) بالمعنى الخاص في الكتاب والسنة بشأن أهل البيت، وبالباحث يتضح أن هذا المعنى الخاص يستعمل في أربعة مواضع.

ولاء المحبة أو ولاء القرابة:

1- ولاء المحبة أو ولاء القرابة. يعني أن أهل البيت هم من ذوي قربي الرسول الكريم (ص) وأن الناس مدعوون إلى أن يولوهم من المحبة بصورة خاصة أكثر مما يقتضيه الولاء العام. لقد جاء هذا في القرآن الكريم، وفي كثير من الروايات التي يرويها الشيعة وأهل السنة، وكلها تقول أن حب أهل البيت، ومنهم علي(ع) من المسائل الإسلامية الأساس.

هنا لابد من إجراء البحث في اتجاهين اثنين:

الأول: لماذا نلاحظ هذه الكثرة في الإيصاء بحب أهل البيت، وفي أن يجعل الناس حبيهم وسيلة للتقرب إلى الله؟ ولنفرض أن كل الناس أدركوا منزلة أهل البيت وأحبوهم حباً حقيقياً، فما تكون نتيجة ذلك؟ من المعلوم أن جميع تعاليم الإسلام مبنية على فلسفة ما أو حكمة. فإذا كان هذا قد جاءنا في صلب الإسلام، فلا شك أن وراءه فلسفة وحكمة.

الجواب على هذا السؤال هو أن وراء محبة أهل البيت، أو بعبارة أخرى وراء الولاء لأهل البيت فلسفة خاصة، ولم يأت على عواهنه وبدون سبب، ولا هو من باب تكريم الرسول أو تكريمهم هم، يصرح القرآن الكريم، على لسان النبي الكريم:

{ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [9] أي أن المودة في القربي تعود عليكم أنتم فاندتها. إن ولاء المحبة مقدمة أو وسيلة لسائر أنواع الولاءات التي سنشرحها فيما بعد. إن المحبة هي الخيط الذي يربط الناس بأهل البيت ربطاً حقيقياً يدفعهم إلى أن يقتدوا بوجودهم وأثارهم وأقوالهم وتعاليمهم وسيرهم وسلوكهم.

إننا في كتابنا (جاذبة علي ودافعه) قد بحثنا بالتفاصيل في مزايا الحب والعشق، وعلى الأخص حب الأئمة الأطهار وأولياء الله باعتباره حبا يصنع الإنسان، وعاملاً ثميناً من عوامل التربية وتحريك الأرواح وتقليبها.

الثاني: هل ولاء المحبة مما يختص به الشيعة، أم أن سائر الفرق الإسلامية تؤمن به أيضاً؟

في الجواب لابد أن نقول أن ولاء المحبة هذا ليس مقصوراً على الشيعة، بل إن سائر الفرق الأخرى توليه اهتمامها أيضاً. وهذا الإمام الشافعي، وهو من أئمة أهل السنة الأربعة، يقول:

يا راكباً قف بالمحصب من منى

واهتف بساكن خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى

فيضاً كملتطم الفرات الفانض

إن كان رفضاً حب آل محمد

فليشهد الثقلان أنني رافضي[10]

ويقول أيضاً:

يا آل بيت رسول الله حبكم

فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفخر أنكم

من لم يصلّ عليكم لا صلاة له[11]

وله أيضاً:

ولما رأيت الناس قد ذهب بهم

مذاهبهم في أبحر الغنى والجهل

ركبت على اسم الله في سفن النجا

وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل

وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم

كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل[12]

إنّ الزمخشري والفخر الرازي اللذين يهتبان لمحاربة الشيعة في موضوع الخلافة، بنفسيهما يرويان رواية في ولاء المحبة. ينقل الفخر الرازي عن الزمخشري أن النبي (ص) قال:

(من مات على حب آل محمد مات شهيداً. ألا من مات على حب آل محمد مات مغفوراً له. ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً. ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان)[13].

وابن الفارض، شاعر الغزل الصوفي المصري المعروف - الذي يعتبر في الأدب العربي مثل حافظ في الأدب الفارسي - في قصيدته التي مطلعها:

سائق الأظعان يطوي البيد طي

منعماً عرج على كئيبان طي

يقول:

ذهب العمر ضياعاً وانقضى

باطلاً إذ لم أفر منك بشي

غير ما أوليت من عقدي ولاء

عتره المبعوث حقاً من قصي[14]

من المحتمل أن يكون المقصود بالولاء هنا معنى أعلى، ولكن القدر المسلم هو أن ولاء المحبة هو المقصود.

والملا عبد الرحمن الجامي - على الرغم من أن القاضي نور الله يقول بشأنه: شخصان يحملان اسم عبد الرحمن قد آذيا علياً (ع) الأول هو عبد الرحمن بن ملجم، والآخر هو عبد الرحمن الجامي - ولكنه ترجم إلى الفارسية تلك القصيدة العصماء التي قالها الفرزدق في الإمام السجاد(ع).

يقال أن أحدهم قد رأى الفرزدق في المنام بعد موته، فسأله: كيف حالك هناك مع الله؟ فقال لقد غفر لي الله بفضل تلك القصيدة في مدح علي بن الحسين(ع).

ويضيف الجامي إلى ذلك قائلاً: إذا غفر الله لجميع الناس بفضل تلك القصيدة ما كان الأمر عجباً. كما أن الجامي قد هجا هشام بن عبد الملك الذي سجن الفرزدق وعذبه.[15]

وعليه فليس ثمة خلاف بين السنة والشيعة في موضوع ولاء المحبة، باستثناء الناصبيين الذين يبغضون أهل البيت. وهم مطرودون من المجتمع الإسلامي، ولقد حكم بنجاستهم، كالكفار. والحمد لله الذي طهر الأرض من وجودهم ولا أثر لهم في الوقت الحاضر، سوى بعض الأفراد الذين يكشفون أحياناً عن أنفسهم فيما يؤلفون من الكتب، وكل همهم هو إيجاد الشقاق والإنقسام بين المسلمين، مثل بعض الأفراد من بيننا، وهذا نفسه دليل على عدم أصالة هؤلاء، وهم لا يعدون أن يكونوا أدوات بيد الإستعمار.

ويضيف الزمخشري والفخر الرازي في نهاية تلك الرواية على لسان الرسول الكريم(ص) أنه قال أيضاً:

(ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً. ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة).

وقد جاء عن الإمام الصادق(ع):

(فإن الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقاً أنجس من الكلب، والناصب لنا أهل البيت لأنجس منه)[16].

إنّ هذا النوع من الولاء إذا نسب إلى أهل البيت، وقلنا أنهم (أصحاب الولاء) فهو (ولاء القربة). أما إذا نسب إلى المسلمين من حيث واجبهم نحو أهل البيت، فهو (ولاء المحبة).

أما كون لفظة (ولاء) تستعمل بمعنى المحبة، فلا نقاش فيه. وهذا كثيراً ما يواجهنا في الزيارات حيث نقرأ:

(موال لمن والاكم، ومعاد لمن عاداكم).

فلا شك في أن معنى ذلك هو أني أحب من يحبكم وعدو لمن يعاديكم. أو نقرأ:

(موال لكم ولأوليائكم ومعاد لأعدائكم) وكثير مثل ذلك.

هنا يتجه البحث وجهتين، الأولى: هل تستعمل كلمة (ولي) بمعنى المحب خاصة؟ الثانية: ما معنى كلمة (ولي) التي استعملت في الآية: {إنما وليكم الله} التي تثبت ولاية أمير المؤمنين علي(ع)؟

يرى بعضهم أن هذه الكلمة حيثما استعملت في القرآن توهم أنها تعني (المحب)، ثم يتضح بعد التدقيق أنها ليست بهذا المعنى. فالآية:

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [17] لا تعني أن الله يحب أهل الإيمان، بل تعني أن الله بعنايته الخاصة يتصرف بشؤون أهل الإيمان، وأن أهل الإيمان ينعمون في حفظ الله وصيانته الخاصة. كذلك هي الحال في الآية:

{ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [18].

فهي تعني أن ليس على أحبباء الله خوف. إن لفظة (ولي) هنا على وزن فعيل بمعنى مفعول. وعليه يكون المعنى: أن الذين يكون الله ولي أمرهم والمتصرف في شؤونهم لا خوف عليهم. وكذلك الأمر في الآية:

{ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } [19].

إذ ليس المعنى أن المؤمنين والمؤمنات يحب بعضهم بعضاً، بل المعنى هو أن المؤمنين يلتزم بعضهم شؤون بعض، ويتصرف فيها ويؤثر أحدهم في مصير الآخر. ولذلك فهو يقول بعد ذلك:

{ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [20].

هنا يتضح جواب السؤال الثاني. فالمقصود من الآية المذكورة ليس أن الله والرسول وعلياً أحبواكم، بل المقصود هو أنهم ذو حق في التصرف في شؤونكم.

وحتى لو صح استعمال (ولي) بمعنى المحب، فهي لا تنسجم هنا مع القول بأن الله ومحمداً وعلياً أولياؤكم حصراً. ومن هذا يتضح أن تفسير بعض مفسري أهل السنة بأن مفاد هذه الآية ليس شيئاً مهماً، وإنما هي تعني أن علياً محب لكم، أو أن علياً ينبغي أن يكون محبوبكم (إذا قلنا أن فعلاً بمعنى مفعول)، غير صحيح.

وعليه، فإن الآية الشريفة {إنما وليكم الله} .. وهو الولاء الإيجابي الخاص، لا يعني المحبة صرفاً، بل هو ولاء أرفع. فما هو هذا الولاء الأرفع؟ سيأتي بيان ذلك قريباً.

ولاء الإمامة

2- إن ولاية الإمامة والقيادة، أو بعبارة أخرى، ولاية المرجعية الدينية، هو مقام من ينبغي على الآخرين أن يتبعوه، وأن يعتبروه قدوة لهم في أعمالهم وسلوكهم، وأن يأخذوا عنه تعاليمهم الدينية، أي مقام الزعامة الدينية. إن مقاماً كهذا يستلزم العصمة، ما دامت أقواله وأعماله سنداً وحجة على الآخرين: وهذا هو المقام الذي يضع الله الرسول الكريم فيه.

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [21] كذلك:

{ قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [22].

الرسول الكريم (ص) في هذه الآيات قدوة، وعلى الناس أن يجعلوا سلوكهم وأخلاقهم متطابقة مع سلوك الرسول وأخلاقه وأن يقتدوا به. وهذا بذاته دليل على عصمة رسول الله عن الخطأ والذنب، إذ لو أمكن أن يصدر عنه خطأ أو ذنب، لما كان هناك ما يدعو لأن يجعله الله قدوة نفتدي به.

هذا المقام قد انتقل بعد رسول الله (ص) إلى أهل البيت. وبموجب روايات أكثر علماء أهل السنة التي ذكروها في كتب السيرة والتاريخ على نحو ثلاثين من الصحابة [23]، فإنه يختار أهل البيت للقيادة والإمامة:

(إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهما فإنهم أعلم منكم) [24].

هنا يرى رسول الله (ص) أهل بيته وكتاب الله توأمين مقترنين معاً. والله يقول عن كتابه:

{ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ } [25]

فلو كان أهل البيت ممن يعتورهم الباطل لما قورنوا بكتاب الله، ولو لم يكن النبي (ص) معصوماً عن الخطأ ومنزهاً عن الإثم، لما كان لأهل بيته أن يكونوا لنا قدوة وقيادة. إن مضمون الحديث يوحي بأنه يدور حول أشخاص معصومين عن الخطأ والإثم، وأن غير أولئك - كما يقول الخواجة نصير الدين الطوسي - ليسوا معصومين ولا يدعون العصمة لأحد. فعليه، لا ينطبق الحديث إلا على الأنمة الأطهار.

يقول ابن حجر: إن قول رسول الله: (فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهما فإنهم أعلم منكم) إنما هو دليل على أن من يصل أهل البيت إلى أعلى مراتب العلم وكان لانقاً للقيام بالمهمات الدينية، يكون مقدماً على الآخرين) [26].

يروى الحافظ أبو نعيم عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال: من أحب أن يحيا حياتي ويموت موتي، وأن يخلد في الجنة فليوال علياً من بعدي [27]، وأن يوالي من والاه وأن يقتدي بالأنمة من بعدي وهم عترتي خلقوا من طينتي. والويل لمن أنكر فضلهم وقطع رحمي بهم، فلن ينال شفاعتي [28]؟

إن الإمامة والقيادة والقدوة الدينية بما يقوله القائد، وبما يعمله ويكون سنداً وحجة، يعتبر نوعاً من الولاية، لأنه ضرب من حق الهيمنة وتدبير شؤون الناس والتصرف فيها.

فعلى وجه العموم، يكون كل معلم ومرب - من حيث كونه معلماً ومربياً - ولياً على شؤون المتعلم والمربي وتصرف فيها، فكيف بالمعلم أو المربي الذي جاءه هذا الحق من الله. تقول الآية:

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } [29].

وهي إشارة إلى هذا الضرب من الولاية. بديهي أن هذا لا يعني أن هذه الآية لا تشمل أنواعاً أخرى من الولاء مما سوف نتطرق إليه قريباً، بل يعني أن هذا الولاء يشمل ولاء الإمامة والقيادة والمرجعية الدينية، كما أن هناك أحاديث أخرى استعملت فيها كلمة (ولاء) بمعنى ولاء الإمامة.

إنّ هذا الولاء إذا نسبناه إلى الإمام كان بمعنى حق القيادة. والمرجعية الدينية، وإذا نسبناه إلى عامة الناس فيعني القبول بهذا الحق.

ولاء الزعامة

3- ولاية الزعامة يعني حق القيادة الاجتماعية والسياسية. أنّ المجتمع يحتاج إلى قائد. فمن يمسك بيده زمام أمور المجتمع، ويدير شؤون الناس الاجتماعية ويكون مسلطاً على مقدراتهم، هو ولي أمر المسلمين. كان رسول الله(ص) في حياته ولي أمر المسلمين، وكانت هذه الولاية قد منحت له بأمر من الله تعالى، ومن ثم إلى أهل بيته بدلائل كثيرة غير قابلة للإنكار. من ذلك الآية الكريمة:

{ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [30].

وكذلك الآيات الأولى من سورة المائدة، وحديث غدير خم الشريف، وعموم الآية الكريمة { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ } وعموم الآية الكريمة: { النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ } [31].

ليس هناك أي خلاف بين السنة والشيعية في أنه كان للنبي شأن كهذا، وأنه كان مقاماً إلهياً، أي أنه كان حقاً أعطاه الله له، ولم يكن تفويضاً من الناس. إن إخواننا من أهل السنة يتفقون معنا إلى هنا. إنما الكلام يكون في أمر (ولاية الزعامة) هذه بعد النبي(ص).

إنّ المجتمع لكي لا يصيب التزلزل أركانه، ولكي لا يسوده الهرج والمرج، لا مندوحة له عن ولي وحاكم يطيعه الناس ويتبعونه فكيف ينبغي أن يكون هذا الحاكم والولي؟ أيقول الإسلام شيئاً بهذا الخصوص أم أنه يلزم الصمت؟ وإذا كان قد قال شيئاً فما هو؟ أترك الخيار للناس في أن يختاروا من يشاؤون بعد النبي(ص) وأن يوجبوا على الآخرين إطاعته، أما النبي الكريم قد عين قبل رحيله من يقوم مقامه في هذا المركز المهم العظيم؟

هنا لابد أن نبحث في جميع شؤون النبي(ص) الاجتماعية في الأمة، بحسب ما يستنبط من القرآن المجيد.

يستنبط من القرآن المجيد ومن السنة والسيرة النبوية أنه كان للنبي(ص) بين المسلمين شؤون ثلاثة:

الأول أنه كان إماماً وقائداً ومرجعاً دينياً، وكانت له ولاية إمامة، وكان كلامه وعمله حجة وسنداً:

{ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } [32].

الثاني أنه كانت له الولاية القضائية، أي أن حكمه كان نافذاً في الاختلافات الحقوقية والمخاصمات الداخلية:

{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [33].

بديهي أن استعمال كلمة (الولاية) هنا صحيح أيضاً مثلما كان من قبل، ولكننا لا نجدها قد استعملت عملياً في موضوع الولاية القضائية.

الثالث أنه كانت له ولاية سياسية واجتماعية، أي أنه فضلاً عن كونه كان مبلغاً لأحكام الله مبيناً لها، وفضلاً عن كونه كان يقضي بين المسلمين، فقد كان أيضاً يسوس مجتمع المسلمين ويديره. كان ولي أمر المسلمين وصاحب الخيار في مجتمعهم، كما قلنا من قبل، وكما جاء في الآية: { النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ } [34].

وكذلك الآية:

{ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ }.

هناك للنبي، بالطبع، شأن رابع سوف نتطرق إليه.

كان النبي(ص) يحكم الناس حكومة رسمية ويقود سياسة المجتمع الإسلامي. وكان يجبي من المسلمين الضرائب بحكم الآية.

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [35]. ويدير شؤونهم المالية والاقتصادية، إِنَّ هذا الشأن من شؤون الرسول الكريم الثلاثة، هو الأصل في بحث موضوع الخلافة.

لا بد من الإشارة إلى أن كلمة (الإمامة) مثلما هي تطلق على الرائد الذي تؤخذ عنه معالم الدين، فيوصف بأنه (إمام)، أي أنه الشخص الذي يجب أن تؤخذ منه التعاليم الدينية)، وبهذا المعنى يطلق أهل السنة إسم (الإمام) على أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل، فإن اللفظة تطلق أيضاً في حالات الزعامة الاجتماعية والسياسية. قال الرسول الكريم(ص).

(ثلاث لا يغفل عليهن قلب أمريء مسلم: إخلاص العمل لله، والتضحية لأئمة المسلمين، وال لزوم لجماعتهم) [36].

ويقول علي(ع) في إحدى رسائله:

(فإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة) [37].

وذلك لأن نتيجة هذا ليس سوى ضرر المسلمين. فلو أن رباناً كان يدير دفة سفينة باتقان، ثم جاء من يوسوس للربان ويخدعه بحيث يعرض السفينة للخطر، فإن هذا لا يكون قد خان الربان وحده، بل يكون في الحقيقة قد خان ركاب السفينة جميعهم. إن كلمة (الإمام) قد استعملت هنا للقيادة الاجتماعية.

إننا كثيراً ما نقرأ في التاريخ الإسلامي أن المسلمين، وحتى الأئمة الأطهار، كانوا يخاطبون خلفاء عصورهم بكلمة (إمام). كل ما في الأمر هو أن الكلمة قد تعني إمام العدل، وقد تعني إمام الجور، وإن على المسلمين واجبات معينة بإزاء كل واحد من هذين. وفي الحديث الشريف المشهور الذي يرويه السنة والشيعة، قوله:

(أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جانر).

وكذلك قوله(ص):

آفة الدين ثلاثة: (إمام جانر، ومجتهد جاهل، وعالم فاجر).

بل إن القرآن نفسه يشير إلى قادة يدعون الناس إلى نار جهنم، ومع ذلك فقد وصفهم بالإمامة:

{ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } [38].

ولكن لاشك في أن كلمة (إمام) أو (أئمة) أكثر ما تطلق على القادة العدول الصالحين. أما في عرف الشيعة، فالأئمة هم أئمة الحق المعصومون، وهم إثنا عشر إماماً.

ولاء التصرف

4- ولاية التصرف، أو الولاء المعنوي، أعلى ضروب الولاية. فضروب الولاية الأخرى إما أن ترتبط برابط القرابة من رسول الله(ص) إضافة إلى مقام الطهارة والقداسة لأهل البيت، وإما أن ترتبط بالصلاحيات العلمية أو الاجتماعية التي يتمتعون بها. إنَّ ما يطلق عليه اسم الولاية في الحالتين الأخيرتين لا تتعدى حدود التشريع والعهد، حتى يخال للمرء أن أصل هذا التعهد ومعناه وفلسفته هو الصلاح العلمي أو الاجتماعي. أما ولاية التصرف المعنوي، فهي ضرب من التسلط والإقتداء التكويني. فلا بد من معرفة معنى ولاية التصرف وما هو القصد منها.

ترتبط نظرية الولاية التكوينية من جهة بالإمكانات الكامنة في هذا الذي ظهر على وجه الأرض باسم الإنسان، وبالكمالات الموجودة بالقوة في هذا الكائن العجيب، وهي الكمالات التي يمكن أن تنتقل من القوة إلى الفعل. وهي ترتبط من جهة أخرى بالعلاقة بين هذا الكائن والله. إنَّ المقصود في الولاية التكوينية هو أن يقترب الإنسان، بسيره على صراط العبودية، من الله، فيكون من أثر ذلك - في مراتبه العليا طبعاً - أن تتركز فيه المعنوية الإنسانية التي هي بذاتها حقيقة من الحقائق، وهو بني له تلك الدرجة من المعنوية، وهي رأس المعنويات، يصبح مسلطاً على الضمائر، وشاهداً على الأعمال، وحجة على زمانه، وإن الأرض لا تخلو من حجة بهذا المعنى.

إنَّ الولاية بهذا المفهوم غير النبوة؟ غير الخلافة، وغير الوصاية، وغير الإمامة التي تعني المرجعية في الأحكام الدينية. إنَّ اختلافها مع النبوة والخلافة والوصاية اختلاف حقيقي، ومع الإمامة اختلاف من حيث المفهوم والاعتبار.

إنَّ المقصود باختلافها عن النبوة والخلافة والوصاية اختلاف حقيقياً ليس أن كل نبي أو خليفة أو وصي لا يمكن أن يكون ولياً، بل المقصود هو أن النبوة والخلافة والوصاية حقائق تختلف عن حقيقة الولاية، وإلا فإن الأنبياء العظام، وعلى الأخص خاتمهم، كانت لهم ولاية إلهية كلية.

أما القول بأن اختلافها عن الإمامة اختلاف اعتباري، فيعني إنها والإمامة مقام واحد، فمرة تعتبر إمامة ومرة تعتبر ولاية. إنَّ تعبير (الإمامة) قد استعمل في المصطلحات الإسلامية بمعنى الولاية المعنوية، مفهوم الإمامة مفهوم واسع. فالإمامة تعني القيادة والمرجع الديني قائد، بمثل ما أن الزعيم السياسي والاجتماعي قائد أيضاً.

إنَّ الشيعة يطرحون موضوع الولاية من جوانب ثلاثة، وفي كل تلك الجوانب الثلاثة تستعمل كلمة الإمامة:

الجانب الأول هو الجانب السياسي: فمن الذي كان أحق وأليق بالقيام مقام النبي بعده لزعامة المسلمين ولقيادتهم اجتماعياً وسياسياً؟ ومن ذا الذي كان يجب أن يخلف النبي(ص) في زعامة المسلمين؟ أما القول بأن النبي قد اختار علياً بأمر من الله لهذا المركز الاجتماعي، فإن له في الوقت الحاضر جانباً تاريخياً، وليس له جانب عملي.

وعلى الرغم من أن الله قد أقام الدنيا على نظام الأسباب والمسببات، وإن من يذكرهم القرآن باسم الملائكة { فَأَلْمَدَبَرَاتِ أَمْرًا } [39] و { فَأَلْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا } [40] إنما هم يأترون بأمر الله، فإن ذلك لا يتنافى مع وحدانية الله تعالى ولا مع مالكيته وخالقيته، كما أنه لا يتنافى أيضاً مع عدم وجود (ولي) بمعنى حبيب لله ومعين له، وحتى آله من آلات الله:

{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلَىٰ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } [41].

إنَّ علاقة المخلوق بالخالق ليست بعد الخالقية والمربوبية، هي اللاشينية المطلقة. فالقرآن الذي يقول: إن الله غني عن العالمين، وفي الوقت الذي يقول فيه:

{ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا } [42].

يقول أيضاً في مكان آخر:

{ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } [43]

وكذلك:

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } [44]

ويقول أيضاً: { إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ } [45].

ويقول أيضاً:

{ وَيُرْسِلْ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } [46].

وفي هذه الآية رسل وحفظة يقبضون الأرواح.

وعليه، فمن حيث النظرة التوحيدية، لا مانع من وجود وسائط وقيام غير الله بتدبير الأمور بإذن الله وبارادته بحيث يكون منفذوا الأوامر قانمين بها بإرادة الله.

ولكن في الوقت نفسه يقتضيا الأدب الإسلامي ألا ننسب الخلق والرزق والإحياء والإماتة وأمثالها إلى غير الله، فالقرآن يريدنا أن نتخطى الأسباب والوسائط ونعبرها إلى المنبع الأصلي لكي يكون توجهنا إلى الفاعل الأول في الكون كله والذي خلق الوسائط من مخلوقاته ومن منفذي أوامره ومظاهر حكمته أيضاً.

ثم إن نظام العالم من حيث الوسائط نظام خاص خلقه الله، وليس بمقدور الإنسان في سيره التكاملي أن يقوم مقام أي من وسائط فيض الله، بل أنه نفسه يتلقى الفيض من تلك الوسائط نفسها فالملائكة توحى إليه، والملائكة تؤمر بالحفاظ عليه وبقبض روحه، على الرغم من أن مقام ذلك الإنسان وسعة وجوده يمكن أن تكون أرفع أحياناً من مقام ذلك الملك الموكل به.

ثم إننا لا نستطيع أن نعين تعييناً دقيقاً حدود ولاية التصرف أو الولاية التكوينية، لإنسان كامل أو قريب من الكمال. إن مجموع القرائن القرآنية والعلمية الذي بين أيدينا يؤيد إمكان وصول الإنسان إلى مرتبة تتحكم فيها إرادته في العلم. ولكن إلى أي حد؟ هل لذلك حد، أم لا حد له؟ إن الجواب على ذلك خارج عن طاقتنا.

الموضوع الثالث الذي يجب ذكره هو: إن ولاية التصرف من شؤون ذلك العبد الذي تنزه كلياً من أهواء نفسه فهذه القدرة ليست مما يتأتى على وفق الرغبة والهوى لأي إنسان.

بل إن الإنسان الذي ما يزال تحت سيطرة رغباته وأهوائه وميوله العشوائية محروم من أمثال هذه الكرامات. أما الإنسان الذي طهر إلى ذلك الحد، لا تتبع إرادته أبداً من النزاعات والغرائز التي تنبعث عنها إرادتنا بل تتحرك إرادته باطنياً وبإشارة غيبية، أما كيف يكون ذلك فلا علم لنا به. أما ما جاء في بعض آيات القرآن: { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا } [47] فإنه يعني أن الذي يملك أصلاً كل نفع وضرر هو الله، وإن قدرتي على نفعي وضرري هي أيضاً من الله. وليست من عندي. وإلا فكيف يمكن أن يملك الناس إلى حد ما نفعهم وضررهم، ثم يكون النبي (ص) أدنى من أولئك في ذلك.

هذه النقاط الثلاث كان من الضروري بحثها أولاً كمقدمة لبحث الولاية التكوينية، لأنها قلما تناولتها الأعلام بالبحث، يضاف إلى ذلك أن بعضهم قد اقترح علينا معالجة ذلك أيضاً.

أعترف أن قبول مفهوم الولاية بهذا المعنى ليس من السهولة بمكان، وكذلك هو تصديقه، خاصة وأن طبقة المتنورين عندنا لا يعجبها الخوض في أمثال هذه المسائل، فهم يعرفون صعوبة الموضوع وسهولة إنكاره بهذا الشكل:

(بالنظر لكثرة المسائل الضرورية والآية المطروحة أمام المسلمين في الوقت الحاضر، فليس هناك ما يدعو إلى تناول موضوع إن كان للنبي والإمام ولاية تكوينية أم لا).

ويطرح آخرون إنكارهم واعتراضهم بشكل آخر يصطبغ بالصيغة الدينية، فيقولون: هذا غلو، ويعني القول بمقام فوق بشري ونصف إلهي للبشر، ونسبة عمل الله إلى غير الله، وعليه فإنه شرك ويتنافى مع أول أصول الإسلام وهو التوحيد.

والحقيقة هي أننا لا نستطيع بأنفسنا أن نتقبل أمراً أو أن نرده. إنَّ كون قضية من القضايا شركاً أو توحيداً لا يتأكد أو ينتفي برغبتنا بحيث أننا يمكن أن نقول إن هذه النظرية شرك وتلك توحيد بحسب ميولنا. هنالك مقاييس دقيقة قرآنية وبرهانية لذلك. إنَّ في المعارف الإسلامية من المسائل المتعلقة بالشرك والتوحيد ما يبلغ بها أوج العظمة التي تفوق قصور الإنسان العادي. كما أن مسألة ضرورة بعض المسائل وأنيته بالنسبة لمسائل أخرى تعتبر من المسائل الرئيسية، ولكن معيار ضرورتها لا ينحصر في كون بعض المسائل تطرح في زمان ما أكثر ويحس الناس بالحاجة إليها أكثر. إنَّ من الخطأ التصور بأن الإحساس بالحاجة يكون دائماً مطابقاً للحاجة فعلاً.

إنَّ مقدار تأكيد القرآن على موضوع ما ضمن عرضه المسائل يعتبر بحد ذاته معياراً ينبغي أن يؤخذ بنظر الاعتبار في كل زمان. ومسألة الولاية التكوينية من المسائل المتعلقة بالإنسان ومواهبه. إنَّ القرآن يولي أهمية كبرى للإنسان ولمواهبه وللجوانب غير العادية في الخلق. وهذا ما سوف نتناوله إن شاء الله في كتابنا (القرآن والإنسان).

يكفي هنا أن نشير بصورة إجمالية إلى هذا الموضوع لتوضيح أسسه إستناداً إلى المفاهيم القرآنية، لنلا يقول بعضهم إنَّ هذا الكلام من (عنديتنا).

إننا في أمثال هذه المسائل التي تثقل على أفهامنا أحياناً، نكون أقرب إلى الحقيقة إذا خطأنا أنفسنا من أن ننكرها.

لا شك إن مسألة (الولاية) بمفهومها الرابع تكون من المسائل العرفانية الصوفية، ولكن هذا لا يعطينا الحق في أن ننبد المسألة على هذا الاعتبار. إنَّ هذه المسألة العرفانية تعتبر مسألة إسلامية من وجهة نظر التشيع. والتشيع مذهب والصوفية مسلك (بصرف النظر عن الخرافات التي دخلت فيها).

ولكنهما يلتقيان في هذه النقطة، وإذا كان لابد من القول أيهما أقدر في تبني تلك المقولة فالذي لا شك فيه بدلائل من القرآن والتاريخ، إن التصوف هو الذي اقتبس ذلك من التشيع، وليس العكس، على كل حال، سوف نستعرض بصورة موجزة جذور هذه الفكرة:

أهم مسألة ينبغي أن تعرض هنا هي مسألة (التقرب من الله) من المعلوم في الإسلام، بل وفي كل دين سماوي، أن روح التشريع هو قصد التقرب إلى الله، وأن النتيجة النهائية المتوقعة من كل عمل هي التقرب إلى الله أيضاً.

إذن سوف نبدأ كلامنا على معنى (التقرب) ومفهومه.

فما معنى التقرب إلى الله؟

إن كثرة تعاطينا لمفاهيم اعتبارية واجتماعية مما نستخدمه في حياتنا اليومية غالباً ما تسبب لنا الوقوع في الخطأ، وتجعل بعض الألفاظ المستعملة في المعارف الإسلامية تنحرف عن معانيها الأصلية وتتخذ معاني اعتبارية.

إننا عندما نستعمل كلمة (التقرب) في غير مفاهيمها الاجتماعية، فإنما نريد مفهومها الحقيقي. فقد نقول، مثلاً: يقرب ذلك الجبل عين ماء. أو: وصلت قرب ذلك الجبل فهنا يكون المراد من القرب هو المعنى الحقيقي، أي من حيث المسافة بعداً أو قرباً، وهي الفاصلة الحقيقية التي تفصلنا عن الشيء، ولا علاقة لذلك بفاصلة اعتبارية ومتفق عليها.

ولكن عندما نقول أن فلاناً قد نال مقاماً قريباً من فلان، أو عندما نقول إن فلاناً قد تقرب إلى فلان بالعمل الفلاني، فما هو القصد من القرب هنا؟

هل نقصد أن المسافة بينهما قد قلت، كما لو كانت من قبل 500 متر وأصبحت الآن 100 متر؟ طبعاً لا. لو كان الأمر كذلك لكان الخادم أقرب الناس إلى المخدم في غرفته. إنما نقصد أن الخادم بما قام به من خدمة راقت في عين المخدم قريباً من نفسه، وهو لم يكن كذلك من قبل، وإنه اقترب منه بذلك أكثر، فكانت النتيجة أن المخدم راح يولي الخادم عناية أكبر. إذن،

يكون استعمال القرب هنا استعمالاً مجازياً وليس استعمالاً حقيقياً، لأنه لا علاقة له بوجود كياني الخادم والمخدوم في مكان قريب بعض من بعض، إنما الكلام يدور على العلاقة الروحية الخاصة التي تنشأ بين المخدوم والخادم لسبب ما، فالأثر الناتج عن ذلك يعبر عنه بالقرب تشبيهاً ومجازاً.

فما هو القرب من الله؟ أهو قرب حقيقي أم هو قرب مجازي؟ أحق أن العبادة بالطاعة والعبادة والسلوك والإخلاص يرتفعون نحو الله، ويتقربون منه، وتقل الفاصلة بينهما، بحيث تتضاءل حتى تنعدم ويحصل ما يعبر عنه القرآن بتعبير (لقاء الرب)؟ أم أن هذه كلها تعبيرات مجازية ولا تعني الاقتراب من الله، وأن ليس هناك قرب أو بعد من الله، وإن القرب من الله لا يختلف شيئاً من القرب من شخصية اجتماعية، أي أن الله يرضى عن عبد فتزداد عنايته به ويكثر لطفه عليه؟

هنا يظهر سؤال آخر. ترى ما معنى رضا الله؟ إن الله لا تعتوره الحوادث بحيث يكون مرة غير راض ثم يرضى، أو أن يكون راضياً ثم يصبح غير راض. فيكون الجواب الذي لا محيص عنه هو أن الرضا وعدم الرضا هنا مجازيان أيضاً، والمقصود بالرضا هو آثار رحمته ولطفه التي سبغها على العبد في حالة طاعته وعبوديته، ولا شيء غير ذلك.

فما هي تلك الرحمة وما هو ذلك اللطف؟ هنا تتباين الإجابات، فهناك من يرى الرحمت تشمل الأمور المعنوية والمادية، والمعنوية هي المعارف واللذة الحاصلة منها، والمادية هي الجنة والحدور العين والقصور. وهناك بعض آخر لا يعترف بالرحمت المعنوية، ويقصر ألطاف الله على الناس بما ينالونه في الجنة من الحدور والقصور والتفاح والكمثري. وهذا الكلام يعني أنه كلما ازداد تقرب أولياء الله إلى الله إزدادت قصورهم وحدورهم وتفايحهم وفواكههم وبساتينهم.

يستنتج من أقوال منكري القرب الحقيقي من الله، أن طاعة الله وعبادته لا تغير علاقة الله بالعبد (وهو ما يقول به أصحاب القرب الحقيقي) ولا تغير علاقة العبد بالله، فمن حيث القرب الحقيقي يتساوى أول شخص في العالم، أي النبي الكريم (ص)، وأشقى الناس من أمثال فرعون وأبي جهل.

الحقيقة هي أن هذا الخطأ ناشئ عن نوع من التفكير المادي بالنسبة للإنسان والله، وعلى الأخص بالنسبة للإنسان.

إن من يرى الإنسان وروحه مجرد كمية من الماء والطين، ولا يريد أن يعترف بقول الله:

{ فَأِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } [48] أو أنه يحمله على محمل المجاز، لا يسعه إلا أن ينكر القرب الحقيقي.

ولكن ما الذي يدعونا إلى أن نفترض الإنسان حقيراً وترابياً إلى هذا الحد، بحيث نضطر إلى تأويل كل شيء ونوجهه تلك الوجهة؟ إن الله كمال مطلق وغير محدود.

حقيقة الوجود تساوي الكمال، وكل كمال يرجع إلى حقيقة الوجود التي هي حقيقة أصيلة مثل العلم، والقوة، والحياة، والإرادة، والرحمة، والخير، وغيرها.

إن الكائنات في أصل خلقتها، كلما كانت أكمل في وجودها، أي كلما كانت أقوى وأشد في وجودها، كانت أقرب إلى ذات الله التي هي الكمال المحض، فمن الطبيعي أن الملائكة أقرب إلى الله من الجمادات والنباتات، وبهذا السبب نفسه يكون بعض الملائكة أقرب إلى الله من بعضهم الآخر، فبعضهم يأمر وبعضهم يطيع، وهذا الاختلاف في المراتب قرباً وبعداً، يتعلق، في الواقع، بأصل الخلق أو بما يصطلح عليه باسم (قوس النزول).

إن الكائنات، وعلى الأخص الإنسان، تشملهم آية:

{ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [49].

وعلى الإنسان، بحكم مرتبة وجوده، أن يحقق هذه العودة في صورة الطاعة والعمل الاختياري والقيام بالواجب اختياريًا. إن الإنسان بأجتيازه طريق طاعة الله، إنما يطوي في الواقع درجات الاقتراب من الله، أي أنه يطوي المراتب من مرتبة الحيوانية إلى مرتبة ما فوق الملائكية. إن هذا الارتقاء والصعود ليس أمراً تشريفيًا أو إداريًا متفقاً عليه، كان يكون ارتقاء من درجة

بسيطة إلى درجة وزير، أو من مجرد عضو في حزب إلى مركز قيادة الحزب، وإنما هو ارتقاء على سلم الوجود، وازدياد في الشدة والقوة والكمال، أي أنه ازدياد واستكمال في العلم والقوة والحياة والإرادة والمشينة، واتساع دائرة النفوذ والتصرف. إنَّ التقرب إلى الله يعني في الحقيقة اجتياز مراحل الوجود والإقتراب من قلب الوجود اللامتناهي.

وعليه، فإن من المستحيل أن لا يصل الإنسان، بعد الطاعة والعبودية واجتياز صراط العبودية إلى مقام الملائكة أو إلى أبعد من ذلك المقام، أو أن يكون في الأقل متمتعاً بالكلمات الملائكية، إن القرآن يؤكد مقام الإنسان بقوله:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [50] حقاً ينبغي القول بأن من ينكر مقام الإنسان فهو إبليس!.

[1] الأنعام، الآية: 90.

[2] المائدة، الآية: 55.

[3] تفسير الطبري، ج 6 ص 288 - 289.

[4] الكشاف، ج 1، ص 505، طبع مصر، سنة 1373.

[5] التفسير الكبير، ج 12، ص 30، طبع مصر، سنة 1357.

[6] ربحانة الأدب، المجلد 5، ص 311.

[7] التوبة، الآية: 71.

[8] المنافقون، الآية: 8.

[9] يونس، الآية: 72.

[10] التفسير الكبير للفرارزي ج 27، ص 166. و(الرفض) بمعنى الطرد والترك. ويوصف الشيعة بالرافض لأسباب خاصة.

[11] (الكنى والألقاب) للمحدث القمي و(نور الأبصار) للشبلنجي، ص 104.

[12] الكنى والألقاب للمحدث القمي.

[13] التفسير الكبير للفرارزي، ج 47، ص 166 والكشاف للزمخشري، ج 4 ذيل 32 سورة الشورى. كذلك جاء في آخر الخطبة 232 من خطب الإمام علي (ع) قوله: (فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته مات شهيداً، ووقع أجره على الله، واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاته لسيفه).

[14] قصي، مع ضم القاف وتشديد الياء، إسم جذ الرسول(ص) الرابع.

[15] سلسلة الذهب.

[16] وسائل الشيعة، ج1، ص 159، الطبعة الجديدة.

[17] البقرة، الآية: 257.

[18] يونس، الآية: 62.

[19] التوبة، الآية: 71.

[20] آل عمران، الآية: 104.

[21] الأحزاب، الآية: 21.

[22] آل عمران، الآية: 31.

[23] أنظر الرسالة التي كتبها قوام الدين الجاسبي القمي، وهو من فضلاء الحوزة العلمية بقم، بأمر من آية الله البروجردي، بشأن أسانيد هذا الحديث. وقد طبعتها دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ونشرتها.

[24] الصواعق المحرقة، ص 90 .

[25] فصلت، الآية: 42.

[26] الصواعق المحرقة، ص 135.

[27] يختلف معنى هذه الجملة بحسب اختلاف معنى (ولاء).

[28] حلية الأولياء، ج 1، ص 86.

[29] المائدة، الآية: 55.

[30] النساء، الآية: 59.

[31] الأحزاب، الآية: 6.

[32] الحشر، الآية: 7.

[33] النساء، الآية: 65.

[34] الأحزاب، الآية: 6.

[35] التوبة، الآية: 103.

[36] الكافي، ج 1، ص 103.

[37] الرسالة 26.

[38] القصص، الآية: 41.

[39] النازعات، الآية: 85.

[40] الذاريات، الآية: 4.

[41] الإسراء: الآية: الأخيرة.

[42] الزمر، الآية: 42.

[43] السجدة، الآية: 11.

[44] النحل، الآية: 28.

[45] هود، الآية: 57.

[46] الأنعام، الآية: 61.

[47] الأعراف، الآية: 188.

[48] الحجر، الآية: 29.

[49] البقرة، الآية: 156.

[50] البقرة، الآية: 34.

الحياة الظاهرة والحياة والمعنوية

إن للإنسان في باطن حياته الظاهرية الحيوانية حياة معنوية.

إن الحياة المعنوية في الإنسان، تلك الحياة التي تكمن بذورها في كل إنسان، تستقي رشدتها وكمالها من أعمالها وأهدافها. فكمال الإنسان وسعادته، وكذلك سقوطه وشقاؤه، يعتمدان على حياة الإنسان المعنوية التي تعتمد بدورها على أعماله ونياته وأهدافه وما يستهدفه من مسيرته.

إننا نعني بالتعاليم الإسلامية من حيث جوانبها التي تتعلق بالحياة الفردية أو الاجتماعية في الدنيا. لا شك أن التعاليم الإسلامية مليئة بمختلف الفلسفات في شؤون الحياة المتنوعة، فالإسلام لا يقلل أبداً من أهمية الحياة وشؤونها، وهو لا يرى للمعنويات وجوداً منفصلاً عن الحياة، فكما أن الروح عندما تفارق الجسد لا تعود لها علاقة بهذا الدنيا، بل تصبح من شؤون عالم آخر. كذلك الأمور المعنوية إذا فصلت عن هذه الحياة لم تعد ترتبط بها. إن الكلام على المعنويات مجرداً عن العيش في هذه الحياة الدنيا لا فائدة فيه.

ولكن ينبغي ألا نتصور أن فلسفات التعاليم الإسلامية تنحصر في الشؤون الحياتية فحسب. كلا، فإن إتباع هذه التعاليم وسيلة لاجتياز طريق التعبد والعبودية إلى استكمال الوجود. إن للإنسان سيراً كمالياً باطنياً لا يتحدد بحدود الجسم والمادة والحياة الفردية والاجتماعية. بل يستقي من مجموعة المقامات المعنوية. وإن الإنسان يكون فعلاً سائراً على هذا الطريق بسيرة في طريق العبودية والإخلاص لله تعالى، بحيث أنه إذا لم يشاهد في هذه الدنيا المراحل التي طواها في مراتب التقرب والولاية، فإنه سوف يشاهدها في العالم الآخر بعد رفع الحجاب عنه[1].

[1] أنظر النشريعة السنوية، مكتب التشيع، رقم 2، صفحات 172 - 180.

النبوة والولاية

يقول أستاذنا الجليل العلامة الطباطبائي:

(إنَّ الأحكام والنواميس الدينية - وبعضها هي المقررات الاجتماعية نفسها - تبدو في الظاهر مجموعة من الأفكار الاجتماعية التي ترتبط بالسعادة والشقاء في الآخرة. وبعبارة أخرى: إنَّ النعم في الجنة والنقم في النار، ترتبط بحقائق تولد في الإنسان على أثر إتباعه لتلك الأحكام والنواميس وتختزن وراء ستار الحس وعند انتقاله إلى النشأة الأخرى، وتمزق ستار الغفلة وحجاب الأنانية، تتكشف له. إذن، فتحت لفافة الحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان في ظل النواميس الدينية، حقيقة حياة وحياء معنوية منها تنبعث النعم الأخروية والسعادة الأبدية، أو أنها تكون من مظاهرها، إن هذه حقيقة واقعة يطلق عليها اسم (الولاية). و(النبوة) حقيقة أدركت الأحكام الدينية والنواميس الإلهية الخاصة بالحياة، وتريد إيصالها إلى الناس. و(الولاية) حقيقة تتولد في الإنسان على أثر إتباع مكاسب النبوة والنواميس الإلهية والعمل بها).

الإمام حامل الولاية

يقول العلامة الجليل الطباطبائي أيضاً بخصوص ثبوت الولاية وحاملها الإمام، وإن عالم الإنسان لا يمكن أن يخلو من إنسان (كامل) يحمل الولاية:

(ليس ثمة شك في ثبوت الولاية وتحقيق صراطها الذي يسير عليه الإنسان نحو مراتب كماله الباطني حتى يصل إلى قرب الله. وذلك لأن الظواهر الدينية لا يمكن تصورها بغير حقيقة باطنية. ولا ريب في أن جهاز الخلق الذي وفر للإنسان الظواهر الدينية (التعاليم العلمية والأخلاقية والاجتماعية) ودعاه إليها، لابد أن يوفر أيضاً وبالضرورة هذه الحقيقة الباطنية التي هي بمثابة الروح. إنَّ الدليل على ثبوت النبوة ودوامها (الشرائع والأحكام) في عالم الإنسان، والذي يسند مجموعة التعاليم الدينية. يدل أيضاً على ثبوت (الولاية) وفعاليتها ودوامها. كيف يمكن تصور مرحلة من مراحل التوحيد، أو حكماً من أحكام الدين، أن يكون حياً بالفعل بغير أن يكون هناك وجود للحقيقة الباطنية التي يشتمل عليها، أو أن يكون العالم الإنساني مقطوع الرابطة بتلك المرحلة؟

إنَّ من يحمل درجات القرب، ويكون أمير قافلة وأهلاً للولاية) ويحافظ على الرابطة الإنسانية بهذه الحقيقة، يطلق عليه القرآن اسم (الإمام) [1] أي الذي اختاره سبحانه للتقدم على صراط (الولاية) ولإمسك بزمام الهداية المعنوية.

إنَّ (الولاية) التي تسطع في قلوب عبيد الله، أشعة نور هو مصدرها، وما المواهب المختلفة سوى سواقي تتصل ببحره العظيم) [2].

لقد جاء في (أصول الكافي) في باب (أن الأئمة نور الله) نقلاً عن أبي خالد الكابلي بروايته عن الإمام الباقر (ع) أنه سأل عن الآية:

{ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا } [3] فقال الإمام في معرض تفسير للآية: (والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار).

إنَّ من الخطأ القول بأن تحديد هدف التعاليم الدينية وظاهرها وباطنها بآثارها الحياتية؛ وبأن القرب الإلهي - وهو النتيجة المباشرة لإتباع تلك التعاليم بصورة صحيحة - ليس سوى أمر اعتباري ومجازي من قبيل التقرب إلى ذوي الجاه والمال في الدنيا، بغير أن تكون له أي دور مؤثر في حياة الإنسان المعنوية والواقعية بما يرفعه في سلم الوجود. إنَّ الذين اجتازوا مراتب القرب حقاً حتى وصلوا إلى درجاته العليا، أي أنهم فعلاً اقتربوا من مصدر الوجود، لابد أنهم قد تمتعوا بمزايا تلك المرحلة، وأولئك هم الذين يحيطون بعالم الإنسان، ومسلطون على أرواح الآخرين وضمائرهم، وشهداء على أعمالهم.

إن كل كائن يتقدم خطوة في طريق كماله المقدر، ويطوي مرحلة من مراحل كمالته، يكون، في الحقيقة، سائراً على طريق الإقتراب من الله. والإنسان كائن من كائنات هذا العالم، وطريق كماله لا ينحصر فقط في التمكن مما يصطلح عليه اليوم باسم (التمدن) أي تلك العلوم والفنون التي تنفع في تطوير الحياة وتحسينها، وتلك الآداب والعادات التي تعين على حياة اجتماعية

أفضل. لو أننا نظرنا إلى الإنسان مجرداً على سطح هذه الكرة الأرضية، لكان ذلك القول مقبولاً، إلا أن للإنسان بعداً آخر، لا يصل إليه إلا بتهذيب النفس، وإلا بالتعرف على الهدف الأخير، وهو الله جل جلاله.

[1] أنظر (تفسير الميزان)، ذيل الآية (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتهمن قال إني جاعلك للناس إماماً) (سورة البقرة، الآية 124).

[2] النشيرية السنوية، مكتب التشيع، الرقم 2.

[3] سورة التغابن: الآية : 8.

من العبودية إلى الربوبية

إنه لتعبير حي: من العبودية إلى الربوبية! أيمن أن يخرج من العبودية، ويضع قدمه على تخوم الربوبية، (أين التراب من رب الأرباب)؟

هذا صحيح، ولكن المقصود من (الربوبية) ليس (الألوهية) إذ كل صاحب قدرة هو (ربها)، وكل امرئ هو (رب) ما يقع تحت يده وسيطرته ونفوذه. عندما جاء أبرهة يريد هدم الكعبة قال له عبد المطلب: إني رب الأبل، وللبيت ربه [1].

لقد أدرجنا القول السابق استناداً إلى حديث معروف وارد في (مصباح الشريعة). يقول الحديث المذكور (العبودية جوهرة كنهها الربوبية).

لقد كان الإنسان يسعى، وما يزال، للعثور على طريق يوصله إلى الهيمنة على ذاته وعلى العالم.

إننا في هذه العجالة لا نتطرق إلى الطرق التي اختارها لبلوغ هذا الهدف، وهل أوصلته إلى هدفه أم تاهت به عنه. إلا أن من بين تلك الطرق طريقاً واحداً يوجب العجب، وذلك لأنه طريق لا يوصل إلى الهدف إلا إذا لم يكن ذاك هو الهدف، أي إذا لم يكن الهدف هو إكتساب القوة للتسلط على الدنيا، بل يكون الهدف هو النقطة المقابلة لذلك تماماً، أي (التذلل والخضوع والفناء واللاوجود) ذلك الطريق العجيب هو طريق العبودية لله.

[1] سيرة ابن هشام، الجلد الأول.

مراحل الطريق ومنازله

إنّ للربوبية والولاية، وبعبارة أخرى، إن للكمال الذي يبلغه الإنسان على أثر عبوديته وإخلاصه وتعبدته الحقيقي، مراحل ومنازل.

المرحلة الأولى تكون ذات إلهام، وتتميز بتسلط الإنسان على نفسه. وبعبارة أخرى، إن أدنى علاقة تدل على قبول عمل الإنسان من لدن الخالق هي أنه يصبح ذا نظرة نافذة واضحة، ويرى نفسه. يقول القرآن الكريم:

{ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } [1].

ويقول:

{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [2].

ثم يتغلب الإنسان على نفسه وقواه النفسانية، ويقهرها وتتقوى إرادته في قبال رغباته النفسية الحيوانية، ويصبح حاكماً على وجوده، ويتميز بإدارة لائقة لما يحيط به.

وهذا القرآن يقول عن الصلاة:

{ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } [3].

ويقول عن الصوم:

{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [4].

وفي كليهما يقول:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } [5].

إنَّ ما يناله الإنسان في هذه المرحلة من العبودية هو: الوضوح في الرؤية والسيطرة على الأهواء والرغبات النفسية.

وبعبارة أخرى، الأثر الأول للعبودية هو الربوبية والولاية على النفس الأمانة بالسوء. [6]

وفي المرحلة الثانية يكون تسلطه وولايته على الأفكار المتناثرة، أي يكون في مرحلة التسلط على قوة الخيال. إنَّ من أعجب قدراتنا هي قدرتنا على التخيل. إنَّ هذه القدرة هي التي تمكن عقلنا من الانتقال في كل لحظة من موضوع إلى آخر. أو ما يسمى بتداعي الخواطر والمعاني. إنَّ هذه القوة، قوة التخيل، ليست تحت سيطرتنا عادة، بل نحن الذين نقع تحت سيطرة هذه القوة العجيبة. فنحن قد لا نستطيع أن نركز ذهننا في موضوع معين ذاته بحيث لا ننقل إلى موضوع آخر فنجدنا، وقد طرأت علينا دون اختيار فكرة مغايرة لما كنا نفكر فيها، ولا نلبث حتى يخطر لنا خاطر آخر وهكذا. ففي الصلاة، مثلاً، كلما حاولنا أن نحافظ على (حضور القلب) والإبقاء على هذا التلميذ في قاعة درس الصلاة، إنفلت وهرب، وفجأة نلاحظ إننا قد أتممنا الصلاة بينما كان هذا (الطالب) غائباً عن الدرس.

النبي الكريم (ص) يشبه هذا تشبيهاً لطيفاً، فيقول:

(مثل القلب مثل ريشة في الغلاة، تعلقت في أصل شجرة، يقلبها الريح ظهراً لبطن) [7].

أو قوله (ص):

(لقلب ابن آدم اشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً) [8].

ولكن هل الإنسان مضطراً اضطراراً ومحكوم أبدياً بالبقاء تحت حكم الفكر الذي يحط كالعصفور القلق كل لحظة على غصن، مع أن الاستسلام لحكم الخيال دليل على الضعف وعدم النضج؟ أم أن أهل الولاية الكاملين قادرون على إخضاع هذه القوة المخزونة لمشيئتهم؟

إنَّ الشق الثاني من السؤال هو الصحيح. فواحد من واجبات الإنسان هو التحكم في أهوائه وتخيلاته، وإلا فإن هذه القوة الشيطانية الصفات، لن تترك لأحد مجالاً للارتقاء بنفسه والسير على صراط التقرب من الله، وتبطل عمل جميع المواهب والقدرات الأخرى في الإنسان، كما جاء في الحديث الشريف.

(تنام عيناى ولا ينام قلبي).

إن السالكين طريق العبودية لله يصلون في المرحلة الثانية إلى حيث ينالون الولاية والربوبية على قواهم التخيلية، ويجعلونها في أسارهم وفي طاعتهم، فيكون من أثر هذا الترويض أن الروح تستطيع أن تسمو بدافعها الفطري الإلهي بغير أن تتدخل هذه القوة في ذلك بالأعبيها.

إننا إذا تجاوزنا عن أشخاص مثل علي(ع) وزين العابدين(ع) ممن تستغرقهم الصلاة، بحيث إنهم يستخرجون شوكة من قدم علي(ع) بغير أن يحس بذلك، أو أن طفل زين العابدين(ع) يسقط من مرتفع وتكسر يده، فيرتفع صراخ الطفل والنسوة في البيت، ويأتي المجير ويجبر الكسر ويلف يد الطفل، وأثناء ذلك كله يكون الإمام زين العابدين(ع) مستغرقاً في الصلاة إلى درجة لا يسمع معها كل ذلك الصراخ والهرج والمرج. وعندما ينتهي من صلاته ويرى يد الطفل مشدودة، يتساءل عما جرى للطفل وما الذي حدث.

أقول إذا تخطينا أمثال هؤلاء العظام، فإننا نرى بين ظهرائنا أناساً إذا وقفوا للصلاة تجمعت خواطرهم وتركزت أفكارهم في الصلاة بحيث أنهم يغفلون عن كل ما هو بعيد عن ذكر الله. لقد كان أستاذنا الكبير الجليل المرحوم الحاج ميرزا علي آقا الشيرازي الأصفهاني أعلى الله مقامه من هؤلاء.

ليس من العبادة - وهي التوجه إلى الله أساساً - ما يوصل الإنسان إلى هذا الانتصار. أما المرتاضون فيدخلون من طرق أخرى ومعظمهم يتوصل لذلك بإهمال الحياة وتعذيب الجسم. ولكن الإسلام يتوصل إلى ذلك عن طريق العبادة، بغير حاجة للتوسل بطرق غير سليمة. إن توجه القلب إلى الله، وتذكر المرء أنه يقف بين يدي رب الأرباب وخالق المخلوقات ومدبرها، يهيأ له حالة تركيز الذهن وتجميع الخواطر.

خليق بنا في هذا المقام أن نستشهد بشيخ فلاسفة الإسلام وأعجوبة الدهر الذي أوصل الآراء الفلسفية، ببركة تعاليم الإسلام، إلى حيث لم يصل إليه القدامى من اليونانيين والفرس والهنود.

يتناول هذا الرجل العظيم في النمط التاسع من الإشارات - بعد شرحه العبادات التي يؤديها العامة، والتي تكون لمجرد الحصول على الجزاء، وهي لذلك لا قيمة كبيرة لها - العبادات المقرونة بالمعرفة، فيقول:

(والعبادة عند العارف رياضة ما لهممه وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليجرها بالتعويد عن جانب الغرور إلى جانب الحق فتصير مسالمة للسر الباطن حينما يستجلي الحق لا تنازعه فيخلص السر إلى الشروق الباطن).

والمرحلة الثالثة هي أن الروح في مراحل القوة والقدرة والربوبية والولاية تصل إلى مرحلة تكون فيها في كثير من الحالات غنية عن الجسد، في الوقت الذي يكون فيه الجسد محتاجاً للروح مائة بالمائة.

إنَّ الروح والجسد لا يستغني أحدهما عن الآخر عادة. فحياة الجسد بالروح، والروح صورة الجسد وحافضة له، وإن سلب العلاقة التدبيرية بين الروح والجسد تستوجب خراب الجسد فساداً والروح، من جهة أخرى لا تستغني عن الجسد في القيام بفعاليتها، لأنها لا تكون قادرة على العمل بغير أن تستخدم الأعضاء والجوارح في الجسد. أما استغناء الروح عن الجسد فيكون في بعض الحالات التي لا تحتاج فيها الروح إلى الجسد.

وهذا الاستغناء قد يكون للحظة، وقد يتكرر، وقد يكون دائماً، وهذا ما يعرف باسم (التجرد).

يقول السهروردي، الحكيم الإشرافي المعروف: إننا لا نتعرف بحكمة الحكيم إلا إذا استطاع (التجرد).

ويقول ميرداماد: لا يكون الحكيم حكيماً إلا إذا أصبح (التجرد) عنده ملكة وطوع إرادته. يقول المحققون أن (التجرد) ليس دليلاً كبيراً على الكمال. أي أن الذين لم يعبروا بعد عالم (المثال) إلى عالم الغيب المعقول يمكن أن يبلغوا تلك المرحلة أيضاً.

المرحلة الرابعة هي أن يقع الجسد تحت إرادة الشخص وأوامره من جميع الوجوه، بحيث أنه يحقق أعمالاً خارقة للعادة في جسده. وهذا موضوع بحثه طويل.

يقول الإمام الصادق(ع):

(ما ضعف بدن عما قويت عليه النية).

المرحلة الخامسة التي هي أعلا المراحل تكون عندما تصبح الطبيعة الخارجية تحت نفوذ الإنسان وإرادته وطوع أمره. ومن هذه المقولة تأتي معاجز الأنبياء وكرامات أولياء الله.

إنّ مسألة المعاجز والكرامات بحد ذاتها قابلة للبحث بصورة مستقلة لتفسيرها. إنّ الإيمان بأحد الأديان السماوية يستلزم الإيمان بحدوث خرق العادة والمعاجز. فالمسلم، مثلاً، لا يمكن أن يكون مسلماً وبالقرآن مؤمناً، ثم ينكر المعجزة وخرق العادة.

إنّ مشكلة المعجزة من المشاكل المحلولة في نظر الحكمة الإلهية الإسلامية، غير أن بحث هذا الموضوع يستوجب البحث في مقدمات كثيرة. إلا إنّنا هنا نبحث الأمر من حيث علاقته بموضوع (ولاية التصرف) وبديهي إنّنا نخاطب الذين يؤمنون بالقرآن ويعتقدون بحدوث المعجزات. لهؤلاء نقول إنّ المعجزة ليست إلا مظهراً من مظاهر ولاية التصرف والولاية التكوينية. فإذا تجاوزنا القرآن، الذي فضلاً عن كونه معجزة بحد ذاته، فإنه كلام الله، وليس كلام رسول الله(ص)، وهو حالة استثنائية بين جميع المعجزات، فإن المعجزة تتحقق عندما يهب الله صاحبها نوعاً من القدرة والإرادة تجعله قادراً في التصرف في الكائنات بإذن الله، فيجعل من العصا حية تسعى، أو يجعل الأعمى بصيراً، بل يستطيع أن يحيي الموتى بإذن الله، وأن يطلع على الخفايا.

إنّ هذه القدرات إنما تنتهي له عن طريق السير في صراط التقرب من الله والإقتراب من مصدر الوجود، وما ولاية التصرف إلا هذا.

يحسب بعضهم أن إرادة صاحب المعجزة وشخصيته لا تأثير لهما في المعجزة، وإنه ليس سوى الستارة التي تظهر عليها الصورة، وإن الله يقوم بالمعجزة مباشرة وبدون وساطة أحد، على اعتبار أن حدود المعجزة خارجة عن حدود القدرة البشرية، مهما يكن مقام صاحبها. وعليه، فإن حدوث المعجزة لا يعني تصرف الإنسان بالكائنات، وإنما الخالق هو الذي قام بذلك مباشرة وبغير تدخل الإنسان.

هذا ظن بعيد عن الصواب، فعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى يأبى أن يقع فعل طبيعي بلا وساطة خلافاً للنظام، فإن هذا التصور يناقض النصوص القرآنية. إنّ القرآن يقول بكل صراحة أن أصحاب الآيات (المعاجز) هم رسله، ولكنهم يفعلون ذلك بإذنه وبديهي أن هذا الإذن ليس مجرد إذن اعتباري بشري يلفظ باللسان أو يمنح بالإشارة فيزيل استحالاته الأخلاقية أو الاجتماعية. إنّ إذن الله هو الكمال الذي يكون سبباً لظهور هذا الأثر. وإذا شاء الله فإنه يسلب منه ذلك الكمال. يقول الله سبحانه في سورة المؤمن، الآية 078

{ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [9].

فأصحاب الآيات في هذه الآية هم رسول الله، ولكن بإذن منه. إنّ هذا الإذن يضاف هنا لننا يحسب أحد أن لأحد استقلالاً ذاتياً في قبال الله سبحانه، بل إنّ على الجميع أن يعرفوا أن:

{ لا حول ولا قوة إلا بالله }.

فكل كائن، مهما تكن مرتبته، فإنه ينفذ إرادة الله ويجري مشيئته، وإنه أحد مظاهره، كذلك هم الأنبياء الذين يتكلمون في إعجازهم على المنبع الغيبي الأزلي، إذ منه يستمدون العون.

سورة النمل المباركة تشير إلى قصة النبي سليمان ومملكة سبأ. وإحضار سليمان الملكة. وحضور الملكة أمام سليمان. إذ يطلب سليمان من الحاضرين في مجلسه أن يحضر أحدهم عرش الملكة قبل حضورها، فيتطوع بعض الحاضرين للقيام بذلك، إلا أن سليمان لا يعجبه نوع عملهم:

{ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [10].

فهذا العالم قال إنه قادر على الإتيان به في تلك البرهة الوجيزة، أي أنه نسب إلى نفسه القدرة لأنه كان عنده بعض العلم. وهذا يعني أنه حقق ذلك العمل الخارق للعادة بموجب نوع من العلم، وإن ذلك العلم ليس من تلك الأنواع التي سجلت حتى الآن في سجلات البشر، وإنما هو علم يرتبط باللوح المحفوظ، ولا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق القرب من الله سبحانه. ويضيف القرآن قوله عن النبي سليمان:

{ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [11].

ومن الآيات التي ترد بخصوص معجزات عيسى بن مريم (ع) نستنتج هذا المعنى ذاته، ولا حاجة لذكرها خشية الإطالة. القصد هو أنه لا يمكن القبول بالقرآن، وإنكار ولاية التصرف في الكائنات، أما إذا شاء أحدهم أن ينظر إلى هذا الموضوع من حيث وجهة النظر العلمية والفلسفية، فإن ذلك أمر آخر خارج عن مجرى كلامنا الآن.

وفي الختام أود أن أوضح النقطة التي أوردتها في البداية، وهي أن جميع هذه المراحل هي نتيجة (القرب) من الله، وأن القرب من الله قرب حقيقي وليس تعبيراً مجازياً:

في الحديث القدسي المعروف الذي يرويه السنة والشيعنة ترد هذه الحقيقة بصيغة جميلة. يروي الإمام الصادق (ع) عن النبي (ص):

قال الله عز وجل: (ما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وإنه ليقترب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها. إن دعائي أحببته وإن سألني أعطيته) [12].

في هذا الحديث روح القضية قد ذكرت. فالعبادة تؤدي إلى القرب، والقرب يؤدي إلى المحبوبة عند الله. أي إن الإنسان بالعبادة يقترب من الله، ويكون من نتائج هذا القرب أن ينال عناية خاصة، وتصبح حواسه إلهية، فبالقدرة الإلهية يسمع ويرى وينطق ويبطش، ويستجاب دعاؤه ويعطى سؤاله.

في الواقع إن روح مذهب التشيع التي تجعله متميزاً على سائر المذاهب الإسلامية، وتمنح أتباعه رؤية إسلامية خاصة، هي هذه النظرة الخاصة التي يحملها هذا المذهب نحو (الإنسان) فهو من جهة يعتبر المواهب الإنسانية على درجة عظيمة من الروعة، ولا يرى أن عالم الإنسان يمكن أن يخلو يوماً من وجود إنسان كامل وصلت فيه جميع المواهب الإنسانية إلى الفعلية، ويرى من جهة أخرى، وبحسب نظراته الخاصة به، أن العبادة هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى المقامات الإنسانية، وإن طي طريق العبودية لله بصورة كاملة وتامة لا يكون إلا ضمن قافلة الإنسان الكامل الرفيعة وتحت رعاية ولي الله وحجته.

وبهذا قال أولياء هذا المذهب:

(بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية. ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية) [13]

[1] الأنفال، الآية: 28.

[2] العنكبوت، الآية: 69.

[3] العنكبوت، الآية: 45.

[4] البقرة، الآية: 183.

[5] البقرة، الآية: 153.

[6] أنظر محاضرتنا عن (التقوى) في (ده غفتار).

[7] نهج الفصاحة، والجامع الصغير، ج1، الصفحة 102.

[8] مسند أحمد، المجلد 6، الصفحة 4.

[9] الرعد، الآية: 38.

[10] النمل، الآية: 39.

[11] سورة ص، الآيات: 36 - 39.

[12] الكافي، المجلد 1، الصفحة 352.

[13] الوسائل، المجلد 1، الصفحة 4.